سَـيل العَـرم[1]

قامت دولةُ سَبَأ على أطلالِ الدولةِ المعينية باليَمَن، وخلفَتْها في لُغتها وعاداتها، واقتبست منها حضارتها ومدنيّتَها، وتدرّجت من الإمارة البسيطة، إلى الدولة المحدودة، إلى الملك الواسع العريض، وأسسوا القصورَ الشامخة بِصِرْوَاح[2]، ثم انتقلوا منها إلى مأرب، واتخذوها حاضرة لهم، حيث أخصب لهم العيش، وطابت الحياةُ، وتقلَّبُوا فى أعطافِ النعيم.

كانت اليمنُ بلاداً مُسْتفيضة الرُّقْعَة، ذات أودية عريضة، وتُرْبة خَصِيبة، ولكنها كانت شحيحةً بالماء، مقفِرةً من الأنهار، إلاّ وَابِلاً[3] من المطر يَتَحَدَّر من سفوح الجبال، ثم يمضي قُدُماً إلى الصحراء لا يَلْوِي على شيء، حتى يأخذَ سبيله إلى باطن الأرض، فلا يلبث إلاّ كما يلبث الطَّيف، أو تقيم سحابة الصيف؛ فألجأتهم الحاجةُ إلى أنْ يبتدعوا أمراً يتوقَّوْن به هذه السيول، ثم ينتفعون بها، فهُدُوا إلى طريقةِ السدود والحواجز، يقيمونها بين الأودية، بمختلف الطرق الهندسية التي تسهِّل الانتفاع بما تخلّفه وراءها من مياه.

كثرت هذه السدود، وتعددت تلك الحواجزُ، بكثرَة الأودية وتعدُّد الجبال، حتى جاوز عددها المئات، ولكن سَدّ مَأرب كان أقْوَاها وأمتنها، وأجْدَاها وأنفعها.

تقعُ مدينة مأرب في نهاية وَادٍ فسيح يَتَّجه إلى الجنوب، ثم يقصر أمَدُه، وتضيق رقْعَتُه رُوَيداً رويداً، حتى يكون أضيقَ ما يكُون، ثم يمتدَّ حتى يلتقي بمَجْرَى السيول المتحدرة مِنْ جبَال السراة.

ففي هذا الوادي أقام الملوك الصيّد[4] من سَبَأ سَدًّا عريضاً مَنِيعاً حَصِيناً، قويًّا مكيناً،

---

(١) العرم: جمع عرمة وهو ما يمسك الماء من بناء وغيره إلى وقت الحاجة.

(٢) صراوح: حصن باليمن قرب مأرب.

(٣) الوابل: المطر الشديد الضخم القطر.

(٤) صيد جمع أصيد: وهو المتكبر المزهو بنفسه.

وجعلوا على جانبيه مصارِفَ بطرق هندسية منتظمة، هَـيَّأتْ لهذا الوادي أن يُـصْبِحَ بفَضْل ما احتجزوه من الماء أرضاً خصيبة، فيها زروع نَـضِرَة، وحدائق ذات بهجة، ونطقت تلك الحجارة الصماء بألفاظ من الأشجارِ مُورقة، وأساليبَ من الأزهار مُـعْجبة.

واستحالت رمالُ الصحراء بُسُطاً هندسية خضراء، تجري بينها القَـنَوات الملتوية، وتَـصْدَحُ فوق خمائلها الشحارير المغَـنّيَة، إلى الأثمار الدانية القُـطُوف، والأزهار المعجبة الألوان.

كانت المرأةُ تسيرُ وسط هذه الحدائق حاملةً مِكْتَلها فوق رأسها، فلا تمضي في السير غَلْوَة[1]، حتى يكون قد امتلأ المِكْتَل من الثَّمرِ المتساقط من شجره.

واتّسَعت لديهم النعمة، وفاضَ عندهم الخَـيْرُ، واشتغل جماعةٌ منهم بالتجارة والرحلة، فكانوا يسيرون إلى القرى التي بارك الله فيها من الحجاز والشام آمنين مطمئنين، لا يسيرون مرحلةً أو مرحلتين حتى يكُونَ الله قد هَـيَّأ لهم مكاناً يُـبْرِدُون فيه أقدامهم، ويُرِيحون أبدانهم، ويتبلّغُون بطيِّب الزاد وعذب الماء. وهم فيما بين ذلك آمنون مطـمئـنون، نعمَـةٌ تُظَاهِر نِعمَـةً، وفضـلٌ من الله يعقبُ فضـلاً ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾[2].

فكانوا حُـلقَاءَ أن يشكُروا لله نِعْمَته، وأن يحمدوه على ما أطعمهم من جُوع وآمنهم من خَوْف، ولكنهم جَرَوا في عِنَان بعض مَنْ سبقهم من الأمم، وساروا في دُرُوبهم، وتقيَّلوا[3] طريقتهم ومذهبهم، فكَفرُوا بالنعمة، وبالغوا في البطر والأَثَرة، حتى أرسل الله فيهم أنبياء نصَحُوهم، فأعرضوا، وَهُداةً مرشدين حاولوا إصلاحهم، فوضعوا أصابِعَهم في آذانهم واستكبروا، ثم انصرفوا عن العمل، وشُغلوا عن العُمْرَان؛ فأراد الله أن يُذيقهم وبالَ أمرهم، وأن يُرِيهم عاقبةَ كُفرانهم، ليكُونوا عِبرَةً لغيرهم، ومَثَلاً لمن يأتي مِنْ بعدهم، وعقوبةً قاسيةً لمن تحدثه نفْسُه أن يسلك طريقهم، ويفعل فعلتهم.

فتهدمّ السدّ، وتقوَّض البناء؛ ولم يستطع أن يحجزَ السيولَ المتدفِّقَة، والأواذي

---

(١) الغَلوة: مقدار رمية سهم وتقدر من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ ذراع.

(٢) سورة: سبأ، الآية: ١٥.

(٣) تقيَّلوا طريقتهم: تشبهوا بهم واتبعوا طريقتهم.

المتلاطمة، وانطلقت المياهُ الحبيسة في شِعَاب الوادي، وبين الغيَاض[١]، فغرقَ الزَّرع، وهلك الضَّرْع، وتقوَّض البناء، وعاد الوادي كما كان صحراء مقفرة صامتة مجْدِبة، لا نباتَ سوى أشجار لا تُثْمر إلا كل مرّ بشع، وأثْلٍ لا غَناء فيه، وشيءٍ من سِدْرٍ[٢] قليل؛ وهربت العصافيرُ والبلابل، وخلفها البومُ يَصِيح فوق الخرائب العافية، والغربانُ تَنْعَقُ في ذُرَى الأشجار الجافة.

أما الأهلون فإنهم لما رأوا أنّ مَعين رزقهم قد غاض، ونَبْع نحْسِهم قد فاض؛ لم يطيقوا صبراً على أنْ يقيموا في صحراء كانت بالأمس جِناناً، وخرائبَ قَطَنوها قصوراً، ففارقوا أوطانهم على الكُره منهم، ونزحُوا عن ديارهم بقَلْبٍ محرور، وعَينٍ عَبْرَى، ثم تفرقوا في شتى البلاد. فانحازت غَسَّان إلى الشام، وأنمار إلى يثرب، وجُذَام إلى تهامة، والأزد إلى عمان، ومُزِّقوا كل ممزّق، حتى صار أمرهم حديثاً يتنقل، وحكايات تُرْوَى، وأحاديث تُتداوَل.

كانوا في نعمة سابغة فلم يحفظوها، وثياب من العز ضافيةٍ فلم يصونوها، فجزاهم الله بما كفروا ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾[٣].

---

(١) غياض جمع غيضة: وهي الموضع الذي يكثر فيه الشجر ويلتف.

(٢) السدر: شجر النبق.

(٣) سورة: سبأ، الآية: ١٧.